

الرواية العربية الجزائرية - النشأة والتطور -

The Algerian Arabian novel - Origin and evolution -

د: عبد القادر سي أحمد

جامعة: حسيبة بن بوعلي - الشلف -

aeksiahmed@gmail.com:

تاريخ الإرسال: 2020/10/05 - تاريخ القبول: 2020/03/07 - تاريخ النشر: 2021/03/29.

الملخص:

يعدّ ظهور العربية في الجزائر مع بداية السبعينيات ظهوراً متأخراً نسبياً بالنسبة إلى الأشكال الأدبية الحديثة، فهي حديثة النشأة، غير أنها من أهم الأشكال السردية التي عُنيت بالدراسة مما أهلها بأن تكون محل اهتمام الكتاب والدارسين حتى أضحت اليوم الفن الكتابي الأكثر شهرة وتلقياً وتداولاً من الفنون السردية والأخرى غير السردية، حيث صار لها مكانة متفردة وجمهور واسع، وخطت خطوة مهمة سواء من حيث الكم أو النوع.

وعليه فما هي الظروف التي نشأت فيها الرواية العربية الجزائرية؟ وكيف تطورت؟ وما هي أهم المضامين التي تناولتها، وأهم الموضوعات التي عالجتها، منذ نشأتها حتى اليوم؟

الكلمات المفتاحية: الرواية - الرواية العربية - النشأة - الحديثة - أنواع الرواية.

Abstract:

The emergence of Arabic in Algeria with the early seventies is a relatively late appearance of modern literary forms and it is one of the most important forms of the narrative very much understood by the study, which makes it has helped to be the axis of importance of writers and scholars until today has become the most famous literary art and has received a discussion about the narrative arts and other non-narratives, where he occupies a unique place and a wide audience, and has reached a milestone so much.

So, what are the circumstances in which the Algerian Arab novel emerged? How did it evolve? What is the most important content he covers and the most important topics he deals with, from his creation to today?

Keywords: Roman - Arabic novel - Origin - Modern - Types of novel.

مقدمة:

جاء ظهور الرواية العربية الجزائرية متأخرا نسبيا بالنسبة إلى الأشكال الأدبية الحديثة، وكذا بالنسبة إلى الرواية العربية في الوطن العربي فهي حديثة النشأة، كون الجزائر تعرضت لمدة طويلة من الاستعمار الفرنسي، وما صاحبه من أساليب القمع والاضطهاد، على مختلف الأصعدة، فالظروف الاجتماعية والسياسية، والثقافية التي مرّ بها الشعب الجزائري آنذاك، جعلت ظهور الرواية واتجاهاتها المختلفة مرتبط بفترات، كان لها الدور الحاسم في بلورة الوعي الجماهيري:

أولاهـا: ثورة الفلاحين سنة 1871م،

والثانية: انتفاضة ماي 1945م الجماهيرية،

أما الثالثة: فقد ارتبطت بالفترة التي جمعت فيها الحركة الوطنية كل قواها الممزقة(1)، ولما جاءت الثورة التحريرية –أول نوفمبر 1954م- وتشبّت المثقفون الجزائريون في أصقاع الأرض، أخذوا يعرفون بالثورة الجزائرية التي كان العالم يرقّب مسيرتها خطوة بخطوة، ويتابع حركتها وجهةً وجهةً في شكل كتابات أدبية مختلفة(2)، نبعها الأساسي الثورة التحريرية.

الثورة:

وبالإضافة إلى ذلك فإن "الثورة كانت هي الإطار الزماني أو الاجتماعي الذي يعالج الكاتب من خلاله آثار الثورة الاجتماعية والنفسية التي عانى منها الشعب الجزائري عامة وطبقاته المحرومة بخاصة"(3)، فكانت الكلمة هي السبيل الوحيد للتعبير عن آلام وأمال الشعب الجزائري في تلك الفترة. كما أن "علاقة الأدب الجزائري بالثورة التحريرية لم يعد شيئا يحتاج إلى تأكيد كون هذه العلاقة كانت ولا تزال حميمة. فالكاتب الجزائري هذا الممتزج بالأرض وروحا ودما قد سخر قلمه لينفث من ذاته أجمل ما تقوله الكلمة اعترافا لهذا الوطن الجميل"(4)، الذي يستحق التضحية من أجله بالغالي والنفيس.

فلا عجب إذا ما وجدنا أن "الكتّاب الجزائريين الذين كتبوا باللغة القومية أدبا عربيا يعبر عن واقع الحياة اليومية خاصة أثناء الثورة التي أحدثت تغييرا عميقا في الفرد ومعالجة قطاعا من المجتمع رحابة واسعة لشخصيات تختلف اتجاهاتها ومشاربها وتتفرع تجاربها وتتصارع أهواؤها ومواقفها"(5)، وهو ما جعل الكتّاب يعمدون إلى "تصوير المعاناة التي يعيشها المواطن الجزائري، بصفة عامة-القمع، التشرد، الجوع، الاستغلال، الحقد العنصري- وغيرها من الممارسات التي عرف بها النظام الاستعماري"(6)، كاشفا كل ذلك بواسطة لغة تنأى بنفسها "عن لغة العلماء والحكماء ورجال الدين في أسفارهم وبروجهم العاجية إلى لغة الناس في حياتهم وواقعهم، أي إلى اللغة التي هي ذات صلة أشد بمعطيات الناس وشواغلهم وأحاسيسهم ورؤاهم"(7)، لتكون بمثابة المرآة العاكسة للواقع المعيش.

ومما لا يخفى على أحد فإن الشعب الجزائري قد عاش ظروفًا صعبة إبان فترة الاستعمار، حيث إن السلطات الفرنسية عمدت إلى تجهيله وعزله وأبعدته عن دينه ولغته وقوميته، حتى وصل بها الأمر إلى تشريع غطرسها وظلمها وعنصريتها، وذلك من خلال إصدار قانونا سنة 1904م، يحدد فيه المستعمر، نشاط المعلم

العربي، مع محاربة اللغة العربية بمختلف الأشكال والوسائل، وفرض لغة فرنسية بديئة(8)، وهو ما أدى إلى انتشار الأمية في وسط المجتمع الجزائري.

ومع ذلك، فإن اللغة في حقيقة أمرها ما هي إلا "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"(9)، المختلفة سياسية كانت أو فكرية أو غيرها من الأغراض، لأن اللغة "أية لغة إنما تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطوعها للخلق الأدبي أو يعبر بها عن حقيقة ذاته"(10)، فهي وسيلة الكاتب للتعبير عن تجربته وفكره ورؤاه، فهي "من أقوى الصلات التي تجمع الناس وتؤلف بينهم"(11)، داخل مجتمعهم، أو مع غيرهم من المجتمعات الأخرى التي يتعاملون معها.

أما إذا ما حاولنا تتبع المسار القصصي في الجزائر، نجد أن المحاولات التي اتخذت الطابع القصصي نذكر: "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" 1849م، لمحمد بن براهيم، فهي في مستوى بين القصة الشعبية والرواية الفنية"(12)، مما أهلها بأن تكون محاولة فنية في مجال الكتابات السردية. ثم توالى المحاولات، لتتوقف عند ظاهرة مبكرة لهذا النوع، والتي تعد أول جهد من حيث جدة الفكرة، والحدث، والشخصيات "غادة أم القرى"*(لأحمد رضا حوحو) 1947م، أما المحاولة الأخرى، فهي "الطالب المنكوب" لعبد المجيد الشافعي 1951م، وثالثا "الحريق" لنور الدين بوجدر 1957م، ورابعا "صوت الغرام" لمحمد المنيع 1967م(13)، وهي كلها محاولات ساهمت بشكل أو بآخر في تطوير الفن القصصي بالجزائر.

وعلى الرغم من هذه المحاولات السابقة، تبقى رواية "ريح الجنوب"(لعبد الحميد بن هدوقة)، "انجازا فنيا هاما أضاف إلى الرواية العربية في الجزائر لبنة متينة في إطار خلق وترسيخ القيم الثورية الجديدة وتدمير الموروث البالي المتخلف"(14)، فكانت عملا فنيا مميّزا على الرغم من مساهمتها للاتجاه الأيديولوجي.

ثم كانت الولادة الثانية والأكثر عمقا، هي رواية "اللاز"(للطاهر وطار)، التي خطت "في مرحلة التأسيس خطوة متقدمة ذات اعتبار، إن لم تكن بالموضوع فبالمعالجة المتطورة، وهي تجمع ملامح من أشكال سلوك في واقع الثورة الجزائرية (1954-1962)، وواقع ما بعد الاستقلال، وما أفرزه الوضع من آفات مختلفة (سياسية وثقافية واجتماعية)"(15)، فهي صوّرت لنا مرحلة مهمة من مرحلة الجزائر الحديثة، مرحلة الثورة التحريرية، ومرحلة سنوات الاستقلال الأولى وما صاحبها من صراعات وتحولات داخل الحزب الواحد.

وبعد صدور رواية اللاز، التي كانت تبدو لصاحبها بأنها لم تف بالغرض المنشود، في رسم الملامح الكاملة لبلاده الطامحة لغد أفضل، فوعد "أن ينجز الجزء الثاني من ثنائية اللاز، بعنوان اللاز - العشق والموت في الزمن الحراشي- في عام 1978م"(16)، فكانت ثمرة الوعد الذي قطعه على نفسه، وتعبيرا عما كان يخالجه من أفكار ورؤى تجاه وطنه.

وكذلك محاولة (مرزاق بقطاش)، في روايته "طيور في الظهيرة"، "التي حاول من خلالها أن يغطي أحداث الثورة الوطنية فنيا" (17)، فكانت الثورة هي مركز كل عمل فني. وبالإضافة إلى هذه الأعمال الروائية، فقد حاول (عبد المالك مرتاض)، في رباعيته الدم والنار أن يغطي أحداث الثورة، حتى تكون في مستوى الثورة أو تسير إنجازاتها (18)، فساهم مرتاض من خلال عمله هذا في تطوير الكتابة القصصية عامة والروائية خاصة في الجزائر.

أما (إسماعيل غموقات)، في رواية "الشمس تشرق على الجميع" و"الأجساد المحمومة"، "تناول فيهما جانبا جديدا في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، وهي ضرورة تعميق ديمقراطية التعليم كمكسب جماهيري وتطبيق التسيير الاشتراكي في الجامعة لتجاوز الكثير من التناقضات التي تفرضها تاريخية هذه الإنجازات الثورية" (19)، فهي لم تخرج عن الإطار العام للاتجاه الأيديولوجي، السائد آنذاك.

فالرواية العربية في عهد الاستقلال، كانت تسير الاتجاه الأيديولوجي، ولا تخرج عن نطاق الاشتراكية والملك العام، على رغم من تناولها لبعض المواضيع الهامشية. لكن تبقى رواية "ريح الجنوب"، (لعبد الحميد بن هدوقة)، وكذا رواية "اللاز" (للطاهر وطار)، اللتان كانتا "بمثابة الأرضية الصحيحة في التأسيس لرواية جزائرية بلسان الأمة والوطن "العربية"، سرعان ما اتسع مجالها وتعدد كتّابها، "فتجاوزت الأعمال الروائية خلال خمس وعشرين عاما (1970-1994) ثلاثين عملا أدبيا إبداعيا، اختلفت في مستويات واقعيّتها كما اختلفت فيها الاتجاهات الفكرية و(الأيديولوجية) ومستويات المعالجة الفنية" (20)، فكانت هذه النصوص الإبداعية، مختلفة تبعا لاختلافات رؤى مبدعيها.

ولكن على الرغم من قلة الإنتاج الفني، خلال هذه الفترة الزمنية، التي تعادل ربع قرن من الزمن، فإن هذا الجهد "يبقى دالا على حيوية العطاء عموما في هذا النوع الأدبي" (21)، فضالة العدد بالمقارنة مع المدّة الزمنية، لا ينقص من قيمة هذا الإنتاج الروائي، حيث يعد إنجازا مهما وإيجابيا، إذا ما قرن ذلك مع الظروف التي عاشها الشعب الجزائري إبّان فترة الاستعمار، التي عرفت عدّة مشكلات، سياسية واجتماعية وثقافية، فرضتها السلطة الاستعمارية.

وهي ظروف، لم تساعد على تغيير الواقع، الثقافي الجزائري المزري، ما أدى إلى تأخر ظهور الرواية الجزائرية إلى فترة السبعينات، لذلك كان موضوعها الأساسي، يدور حول الثورة الوطنية ومخلفاتها النفسية والاجتماعية، كون أن أغلب الروايات العربية، كانت "تعالج الثورة التحريرية، أو الآثار الاجتماعية والنفسية المترتبة على هذه الثورة، مع التطلع إلى العدالة الاجتماعية التي كانت تنادي بها الثورة" (22)، من أجل تحقيق طموحات الشعب الجزائري.

ثم بعد وفاة هواري بومدين -رحمة الله عليه - الذي كانت فترته، فترة مراقبة وحصر الأدب وفق توجه إيديولوجي، بدأ النقاد يتنفسون النقد الفني، ثم جاءت فترت عاشها الشعب الجزائري، وهي فترة عصيبة ومؤلمة في تاريخ الأمة، كان لها وقع في القلوب والعقول، يعادل وقع الثورة التحريرية، إن لم نقل يفوقها، فقد

دفعت هذه الفترة السوداء - فترة الإرهاب - القاص/الأديب الجزائري والعربي على حد سواء، إلى تدوين المشاهد الدموية، التي ارتكبتها الخارجون عن جادة الصواب. نحو (بوشاقور ازدهار)، في رواية "لص في مملكة الأحرار"، و(عبد المالك مرتاض)، في رواية "وادي الظلام"، و(مرزاق بقطاش)، في رواية "دم الغزال"، وغيرهم كثير، ممن سجّل تلك الأحداث ونقلها إلى القارئ في قالب فني روائي، يصوّر تلك الحقبة من تاريخ هذه الأمة.

وخلاصة القول، فإنه وعلى الرغم من تأخر ظهور الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، إلى مطلع السبعينيات من القرن الماضي، وارتباطها "بالثورة الوطنية واتخاذها منها لا ينضب لتغرف منه مادتها(...)"، لنجد جل الروايات تنطلق من الحاضر لتتدرج بنا في شكل تداعيات وارتدادات نحو الماضي، لا لترتبط به ولكن لتأخذ منه العبر وتعمق الحدث وتنمي الشخصيات" (23)، قد استطاعت أن "تؤصل لنوع أدبي جديد ناضج في الأدب الجزائري الحديث المعبر بلغة الوطن - العربية- عن واقع، وقضايا، ومواقف، في مستويات أدبية فنية مختلفة" (24)، تساهم في تطوير النهضة الأدبية عامة والروائية خاصة، وهو ما أهلها بأن تواكب التطورات الأدبية، وتسائر التغيرات التي طرأت على الساحة الوطنية، بحيث تنوعت مواضيع الرواية الجزائرية واختلفت كما وأنواعا.

لكن تبقى الرواية الجزائرية ومنذ نشأتها وحتى اليوم، ورغم تنوع نماذجها وكثرة كتابها بالقياس إلى الماضي، فهي بحاجة إلى نقلة نوعية، نحو كتابة فعّالة لمسيرة التحوّل الاجتماعي، وإلى كتابة تسهم في بناء الشخصية الوطنية.

ومهما يكن، فإن الإبداع الروائي، يشارك لا محالة في بلورة الواقع الموضوعي والذاتي في آن واحد، لأن الكتابة بحث عن حلم مفقود، وعن مجتمع لا ينجر الأحلام، وعن عمل إبداعي يستعمل الكتابة كأداة لخرق الفضاء الخيالي يجهل الحدود والانحصارات، إذ أن هذه الكتابة بعيدة كلّ البعد عن اليقين الهادئ والغبطة المكتملة، فحينئذ تصبح صداقة الشك صفة أساسية توصل إلى الحقيقة الزهية وإلى الوضعية المعيشية للفرد الجزائري وللإنسان العربي (25)، أي أنه يمكن للكتابة الروائية وباستعمال لغة التخيل أن تعالج القضايا الاجتماعية والفردية، للفرد الجزائري خاصة، والمجتمع العربي عامة، وتساهم بطريقة فعّالة في الانتقال من الفردي إلى الإنساني ومن المحلي إلى العالمي

الهوامش

- (1) ينظر، واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1986، ص: 17-18
- (2) ينظر، عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، دط، دت، ص: 08-09
- (3) محمد مصاييف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت، ص: 09
- (4) عبد القادر بن سالم، مكونات السرد في النص القصصي الجزائري الجديد، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، دط، 2001، ص: 16
- (5) عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، الجزائر، دط، 2009، ص: 237-238
- (6) مخلوف عامر، الرواية والتحوّلات في الجزائر، دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000، ص: 18

- (7) الصادق قسومة، الرواية مقوماتها ونشأتها في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2000م، ص: 33
- (8) ينظر، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، واسيني الأعرج، مرجع سابق، ص: 46-47
- (9) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، ج1، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دط، دت، ص: 33
- (10) واسيني الأعرج، المرجع السابق، ص: 70
- (11) سمير كبريت، اللغة العربية وإعداد رجال الإعلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1431 ط1، هـ/2010م، ص: 272
- (12) عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ص: 196-197
- * اختلف في أجنست هذا العمل السردي، هناك من يعدّها عملا روائيا، نحو واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص: 130. وهناك من يعدّها قصة طويلة لافتقادها لبعض الخصائص الروائية دون أن ينقص ذلك من قيمتها الفنية شيئا، نحو: عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، ص: 08
- (13) ينظر، عمر بن قينة، المرجع السابق، ص: 198
- (14) ينظر، واسيني الأعرج، المرجع السابق، ص: 102-103
- (15) عمر بن قينة، المرجع السابق، ص: 220
- (16) المرجع نفسه، ص: 115
- (17) واسيني الأعرج، المرجع السابق، ص: 90
- (18) ينظر، المرجع نفسه، ص: 93
- (19) المرجع نفسه، ص: 106-107
- (20) المرجع نفسه، ص: 241
- (21) المرجع نفسه، ص: 241
- (22) محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، ص: 08-09
- (23) رابح الأطرش، بناء الرواية العربية الجزائرية 1970-1985- دراسة موضوعية وفنية، رسالة ماجستير في الأدب، جامعة عين شمس، مصر، 1991م، ص: 48
- (24) عمر بن قينة، المرجع السابق، ص: 241
- (25) ينظر، رشيد بوجدر، الواقع الصلب والخيال الروائي، جريدة الخبر اليومية، الخميس 20 مارس 2014، العدد 7378، ص: 29

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، ج1، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دط، دت، باب القول على اللغة.
2. أحمد جبر شعث، شعرية السرد في الرواية العربية المعاصرة، مكتبة القادسية للنشر والتوزيع، ط1، 2005م.
3. سمير كبريت، اللغة العربية وإعداد رجال الإعلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1431 هـ/ 2010م.
4. الصادق قسومة، الرواية مقوماتها ونشأتها في الأدب العربي الحديث، مركز النشر الجامعي، تونس، دط، 2000م.
5. عبد القادر بن سالم، مكونات السرد في النص القصصي الجزائري الجديد، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، دط، 2001.
6. عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر الجزائر، دط، 2009.
7. عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، دط، دت.
8. محمد مصاييف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، دت.
9. مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر، دراسات نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2000م.
10. واسيني الأعرج، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1986.
11. رابح الأطرش، بناء الرواية العربية الجزائرية-1970-1985- دراسة موضوعية وفنية، رسالة ماجستير في الأدب، جامعة عين شمس، مصر، 1991م.
12. رشيد بوجدر، الواقع الصلب والخيال الروائي، جريدة الخبر اليومية، الخميس 20 مارس 2014، العدد